الجهاد في الإسلام

دراسة تحليلة

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تعالى مخاطبًا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[1]

إن هذا البيان القرآني بإطاره الواسع الكبير ، الذي يشمل المكان كله فلا يختص بمكان دون مكان ، والزمان بأطواره المختلفة وأجياله المتعاقبة فلا يختص بزمان دون زمان ، والحالات كلها سلمها وحربها فلا يختص بحالة دون حالة ، والناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم عربهم وعجمهم فلا يختص بفئة دون فئة ، . ليجعل الإنسان مشدوها متأملا في عظمة التوصيف القرآني لحقيقة نبوة سيد الأولين والآخرين ، (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) رحمة عامة شاملة ، تجلت مظاهرها في كل موقف لرسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه الكون والناس من حوله .

والجهاد في الإسلام حرب مشروعة عند كل العقلاء من بني البشر ، وهي من أنقى أنواع الحروب من جميع الجهات :

(١) من ناحية الهدف . (٢) من ناحية الأسلوب .

(٣) من ناحية الشروط والضوابط . (٤) من ناحية الإنهاء والإيقاف .

(٥) من ناحية الآثار أو ما يترتب على هذه الحرب من نتائج .

وهذا الأمر واضح تمام الوضوح في جانبي التنظير والتطبيق في دين الإسلام وعند المسلمين ، وبالرغم من الوضوح الشديد لهذه الحقيقة ، إلا أن التعصب والتجاهل بحقيقة الدين الإسلامي الحنيف ، والإصرار على جعله طرفا في صراع وموضوعا للمحاربة ، أحدث لبسا شديدا في هذا المفهوم . مفهوم الجهاد . عند المسلمين ، حتى شاع أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، وأنه يدعو إلى الحرب وإلى العنف ،ويكفي في الرد على هذه الحالة من الافتراء ، ما أمر الله به من العدل والإنصاف ، وعدم خلط الأوراق ، والبحث عن الحقيقة كما هي ، وعدم الافتراء على الآخرين ، حيث قال سبحانه في كتابه العزيز " لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون "

ولقد فطن لبطلان هذا الادعاء كاتب غربي كبير هو توماس كارليل ، حيث قال في كتابه " الأبطال وعبادة البطولة " ما ترجمته : " إن اتهامه . أي سيدنا محمد . بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم ؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر

---

(١)الأنبياء/١٠٧

رجل فرد سيفه ليقتل به الناس ، أو يستجيبوا له ، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم ، فقد آمنوا به طائعين مصدقين ، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدروا عليها" [١]

ويقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب . وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام في عهده صلى الله عليه وسلم وفي عصور الفتوحات من بعده . : " قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ..... ، ولم ينتشر القرآن إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها ..... ولم يكن القرآن أقل انتشارا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة فيها ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا في الوقت الحاضر." [٢]

هذا وقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثة عشر عاما ، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد كان نتاج هذه المرحلة أن دخل في الإسلام خيار المسلمين من الأشراف وغيرهم ، وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء ، ولم يكن لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثروة عظيمة يغري بها هؤلاء الداخلين ، لم يكن إلا الدعوة والدعوة وحدها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تحمَّل المسلمون – لاسيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم – من صنوف العذاب وألوان البلاء ما تعجز الجبال الرواسي عن تحمله ، فما صرفهم ذلك عن دينهم ، وما تزعزعت عقيدتهم ، بل زادهم ذلك صلابة في الحق ، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقرهم ، وما سمعنا أن أحداً منهم ارتدّ سخطاً عن دينه ، أو أغرته مغريات المشركين في النكوص عنه ، وإنما كانوا كالذهب الإبريز لا تزيده النار إلا صفاء ونقاء ، وكالحديد لا يزيده الصهر إلا قوةً وصلابةً ، بل بلغ من بعضهم أنهم وجدوا في العذاب عذوبة ، وفي المرارة حلاوة . أفيصح مع هذه الحقائق الناصعة أن يقال : إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قهر الناس وحملهم على الدخول في دينه بالقوة والأرهاب والسيف ؟!!!

وسنتكلم هنا على الجانبين التطبيقي والتنظيري ، ونقصد بالتنظيري ما ورد في مصادر الإسلام (الكتاب والسنة) ، ونعني بالتطبيقي ما حدث عبر القرون ابتداء من الحروب التي شارك فيها

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد صـ١٦٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) غوستاف لوبون حضارة العرب ص ١٢٨ ، ١٢٩ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب

النبي صلى الله عليه وسلم ، وانتهاء بعصرنا الحاضر ، ثم نختم ببيان هذه النقاط الخمسة التي ذكرناها سابقا .

أولا : الجانب التنظيري

ورد في القرآن الكريم آيات تبين شأن الجهاد في الإسلام ، ويرى المطالع لهذه الآيات ، أن المجاهد في سبيل الله ، هو ذلك الفارس النبيل الأخلاقي المدرب على أخلاق الفروسية العالية الراقية ؛ حتى يستطيع أن يمتثل إلى الأوامر والنواهي الربانية التي تأمره بضبط النفس قبل المعركة وأثناء المعركة وبعد المعركة، فقبل المعركة يجب عليه أن يحرر نفسه من كل الأطماع ، وألا يخرج مقاتلا من أجل أي مصلحة شخصية ، سواء كانت تلك المصلحة من اجل نفسه أو من أجل الطائفة التي ينتمي إليها ، أو من أجل أي عرض دنيوي آخر ، وينبغي أن يتقيد بالشروط والضوابط التي أحل الله فيها الجهاد ، وأن يجعل ذلك لوجه الله تعالى ، ومعنى هذا أنه سوف يلتزم بأوامر الله ، ويستعد لإنهاء الحرب فورا ، إذا ما فقدت الحرب شرطا من شروط حلها أو سببا من أسباب استمرارها ، وسواء أكان ذلك الفارس منتصرا ، أو أصابه الأذى من عدوه ، فإن الله يأمره بضبط النفس ، وعدم تركها للانتقام ، والتأكيد على الالتزام بالمعاني العليا ، وكذلك الحال بعد القتال ، فإنه يجب عليه أن يجاهد نفسه الجهاد الأكبر ؛ حتى لا يتحول الفارس المجاهد إلى شخص مؤذ لمجتمعه أو لجماعته أو للآخرين ، وبالرغم من أن لفظة الجهاد إذا أطلقت انصرف الذهن إلى معنى القتال في سبيل الله . إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أسماه بالجهاد الأصغر ، وسمى الجهاد المستمر بعد القتال بالجهاد الأكبر ؛ لأن القتال يستمر ساعات أو أيام ، وما بعد القتال يستغرق عمر الإنسان كله.

وفيما يلي نورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحدثت عن هذه القضية ، ثم بعد ذلك نستخرج منها الأهداف والشروط والضوابط والأساليب ، ونعرف منها متى تنتهي الحرب ، والآثار المترتبة على ذلك :

أولا : القرآن الكريم:

(١) (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) البقرة– ١٩١

(٢) (فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) البقرة . ١٩٢.١٩٣

(٣) (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) البقرة . ٢١٦

(٤) (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) البقرة . ٢١٧

(٥) (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) آل عمران١٤٦

(٦) (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) آل عمران ١٦٩

(٧) (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم) آل عمران ١٩٥

(٨) (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) النساء . ٧٤

(٩) (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) النساء . ٧٥

(١٠) (فإن اعتزلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) النساء ٩٠

(١١) (وإذ يعدكم الله أحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) الأنفال . ٧ ، ٨ .

(١٢) (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)

(١٣) (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) الأنفال . ٣٩

(١٤) (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) الأنفال . ٤٧

(١٥) (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) الأنفال . ٦١

(١٦) (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) الأنفال . ٧٠

(١٧) (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) التوبة . ٥ ، ٦

(١٨) (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) التوبة . ١١١

ثانيا الأحاديث

(١) روى الترمذي في سننه عن النعمان بن مقرن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميرا على جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا وقال اغزوا بسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال أيها أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم وادعهم إلى الإسلام والتحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم إن فعلوا ذلك فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين وإن أبوا أن يتحولوا فأخبرهم انهم يكونوا كأعراب المسلمين يجري عليهم ما يجري على الأعراب ليس لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا فإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم وإذا حاصرت حصنا فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه واجعل لهم ذمتك وذمم أصحابك لأنكم أن تخفروا ذمتكم وذمم أصحابكم خير من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلوهم ولكن انزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا أو نحو هذا قال أبو عيسى وفي الباب عن النعمان بن مقرن وحديث بريدة حديث حسن صحيح حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو أحمد عن سفيان عن علقمة بن مرثد نحوه بمعناه وزاد فيه فإن أبوا فخذ منهم الجزية فإن أبوا فاستعن بالله عليهم قال أبو عيسى هكذا رواه وكيع وغير واحد عن سفيان وروى غير محمد بن بشار عن عبد الرحمن بن مهدي وذكر فيه أمر الجزية قال الترمذي حسن صحيح

(٢) في مسند أحمد : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله و من معه من المسلمين خيراً ، و قال اغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتهن ما أجابوك إليها ما قبل منهم و كف عنهم ، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من ديارهم إلى دار المهاجرين ، و أعلمهم إن هم فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين و أن عليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا و اختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، و لا يكون لهم في الفيء و الغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم و كف عنهم ، فإن أبوا فاستعن الله ثم قاتلهم

(٣) روى مسلم في باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله . كتاب الإمارة

عن أبي هريرة : تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا جهاد في سبيله وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة

(٤) عن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه قال غزوت مع نبي الله صلى الله عليه وسلم غزوة كذا وكذا فضيق الناس المنازل وقطعوا الطريق فبعث نبي الله صلى الله عليه وسلم مناديا ينادي في الناس أن من ضيق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له سنن أبي داود . أول كتاب الجهاد باب ما يؤمر من انضمام العسكر وسعته

(٥) عن وهب بن منبه سألت جابرا عن شأن ثقيف إذ بايعت قال اشترطت على النبي صلى الله عليه وسلم أن لا صدقة عليها ولا جهاد وأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يقول سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا

سنن أبي داود . كتاب الخراج والإمارة والفئ . باب ما جاء في خبر الطائف

(٦) عن سلمة بن نفيل الكندي قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل يا رسول الله أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا لا جهاد قد وضعت الحرب أوزارها فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه وقال : " كذبوا الآن الآن جاء القتال ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة وحتى يأتي وعد الله والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وهو يوحي إلي أني مقبوض غير ملبث وأنتم تتبعوني أفنادا يضرب بعضكم رقاب بعض وعقر دار المؤمنين الشام "

رواه النسائي . كتاب الخيل

(٧) عن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه قال : نزلنا على حصن سنان بأرض الروم مع عبد الله بن عبد الملك ، فضيق الناس المنازل و قطعوا الطريق ، فقال معاذ : أيها الناس أنا غزونا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم غزوة كذا و كذا ، فضيق الناس الطريق ، فبعث النبي صلى الله عليه و سلم منادياً فنادى : من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له . رواه أحمد

(٨) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أريد الجهاد فقال : أحي والداك ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما

مصنف عبد الرزاق . كتاب الجهاد باب الرجل يغزو وأبوه كاره له

(٩) عن سعد بن زيد بن سعد الأشهلي أنه أهدي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم سيفاً من نجران فلما قدم عليه أعطاه محمد بن مسلمة و قال : " جاهد بهذا في سبيل الله فإذا اختلفت أعناق الناس فاضرب به الحجر ثم أدخل بيتك و كن حلساً ملقى حتى تقتلك يد خاطئة أو تأتيك منية قاضية .

قال الحاكم : فبهذه الأسباب و ما جانسها كان اعتزال من اعتزل عن القتال مع علي رضي الله عنه وقتال من قاتله " رواه الحاكم في مستدركه . كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم . ذكر إسلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه

(١٠) عن سعيد بن جبير قال : " خرج علينا أو إلينا ابن عمر فقال رجل كيف ترى في قتال الفتنة فقال وهل تدري ما الفتنة كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة وليس كقتالكم على الملك

رواه البخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

(١١) عن أبي هريرة أعد الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنة الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة ثم قال والذي نفسي بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تخرج في سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة فيتبعوني ولا تطيب أنفسهم فيتخلفون بعدي والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل

سنن ابن ماجه . كتاب الجهاد . باب فضل الجهاد في سبيل الله

(١٢) كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا بعث أميرا على جيش أو سرية أمره في خاصة نفسه بتقوى الله و من معه من المؤمنين خيرا ، ثم قال: اغزوا باسم الله ، فقاتلوا في سبيل الله ، و قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا و لا تغدروا و لا تمثلوا و لا تقتلوا وليدا . أخرجه مسلم في الصحيح .

ويتضح من هذه الآيات والأحاديث أن هدف الحرب في الإسلام يتمثل في الآتي :

(١) رد العدوان والدفاع عن النفس .
(٢) تأمين الدعوة إلى الله وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها .
(٣) المطالبة بالحقوق السليبة .
(٤) نصرة الحق والعدل .

ويتضح لنا أيضا أن من شروط وضوابط الحرب :

(١) النبل والوضوح في الوسيلة والهدف .
(٢) لا قتال إلا مع المقاتلين ولا عدوان على المدنيين .
(٣) إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فلا عدوان إلا على الظالمين .
(٤) المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التي تليق بالإنسان .
(٥) المحافظة على البيئة ويدخل في ذلك النهي عن قتل الحيوان لغير مصلحة وتحريق الأشجار ، وإفساد الزروع والثمار ، والمياه ، وتلويث الآبار ، وهدم البيوت .
(٦) المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان وعدم التعرض لهم .

الآثار المترتبة على الجهاد

يتضح لنا مما سبق أن الجهاد في الإسلام قد اتسم بنبل الغاية والوسيلة معا فلا غرو أن تكون الآثار والثمار المتولدة عن هذا الجهاد متناسقة تماما في هذا السياق من النبل والوضوح لأن النتائج فرع عن المقدمات ، ونلخص هذه الآثار في النقاط التالية :

(١) تربية النفس على الشهامة والنجدة والفروسية .

(٢) إزالة الطواغيت الجاثمة فوق صدور الناس ، وهو الشر الذي يؤدي إلى الإفساد في الأرض بعد إصلاحها .

(٣) إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم .

(٤) تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية .

(٥) تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس في أوطناهم .

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحج :

{الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}.

قال الإمام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية :

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض" أي لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بينته أرباب الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات؛ فكأنه قال: أذن في القتال، فليقاتل المؤمنون. ثم قوي هذا الأمر في القتال بقوله: "ولولا دفع الله الناس" الآية؛ أي لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق في كل أمة. فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه؛ إذ لولا القتال لما بقي الدين الذي يذب عنه. وأيضا هذه المواضع التي اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى؛ أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد عليه السلام المساجد. "لهدمت" من هدمت البناء أي نقضته فانهدم. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية."[١]

ثانيا: الناحية التطبيقية

(١) **حروب النبي صلى الله عليه وسلم :**

---

(١) القرطبي ١٢ / تفسير سورة الحج

(أ) الحرب ظاهرة اجتماعية

الحرب ظاهرة إنسانية قديمة قدم الإنسان على ظهر هذه البسيطة ، فمنذ وجد الإنسان وهو يصارع ويحارب ، وكعلاقة من العلاقات الاجتماعية الحتمية نشأت الحرب ،فالاحتكاك بين البشر لابد وأن يولد صداما من نوع ما ، لقد جبل الإنسان على غريزة التملك التي تدعوه إلى التشبث بما يملكه حيث إن هذه الغريزة هي التي تحفظ عليه البقاء في الحياة ، وهي بالتالي التي تتولد عنها غريزة المقاتلة ، في أبسط صورها دفاعا عن حقه في الاستمرار والحياة ، وقد تتعقد نفسية الإنسان وتصبح حاجاته ومتطلباته مركبة ، فلا يقاتل طلبا للقوت أو دفاعا عنه فقط ، وإنما يقاتل طلبا للحرية ورفعا للظلم واستردادا للكرامة . ويفصل العلامة ابن خلدون هذه الحقيقة في مقدمته فيقول : (اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله ، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته ، فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان ؛ إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع ، كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر ، إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده) [1]

(ب) الحرب في الكتب المقدسة قبل الإسلام :

إذا ما تجاوزنا الأمم والحضارات البشرية ، وتأملنا في الكتب السماوية المقدسة (التوراة . الإنجيل) ، نرى أن هذه الكتب المقدسة قد تجاوزت الأسباب المادية الغريزية التي يقاتل الإنسان من أجلها إلى أسباب أكثر رقيا وحضارة ، فبعد أن كان الإنسان يقاتل رغبة في امتلاك الطعام أو الأرض ، أو رغبة في الثأر الشخصي من الآخرين ، أو حتى ردا للعدوان ، نرى أن الكتب المقدسة قد أضافت أسبابا أخرى أسبابا إلهية تسمو بالبشرية عن الدنايا وظلم الآخرين ، إلى بذل النفس إقامة للعدل ونصرة للمظلوم ومحاربة للكفر والخروج عن منهج الله لقد حددت الكتب السماوية المناهج والأطر التي يسمح فيها بإقامة القتال وعبرت بالإنسان مرحلة بناء المجد الشخصي المؤسس على الأنا ، إلى مرحلة التضحية من أجل المبادئ والمثل الإلهية العليا ، التي تعمل في إطار الجماعة البشرية لا في محيط الفرد الواحد .

الحرب في العهد القديم :

وردت أسباب الحرب في ست وثلاثين آية تقع في ثمانية أسفار من أسفار العهد القديم هي : (التكوين . العدد . التثنية . يوشع . القضاة . صموئيل الأول . الملوك الثاني . حزقيال) .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١ / ٢٢٦ فصل في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها.

(١) ففي سفر العدد . الإصحاح الثالث عشر ، ورد ما يفيد أن موسى عليه السلام ، بعد خروجه بقومه من مصر بعث رسلا يتحسسون أمر أرض كنعان . فلسطين . ليستقروا فيها:

" فساروا حتى أتوا موسى وهارون وكل جماعة بني إسرائيل إلى برية فاران إلى قادش ، وردوا إليهما خبرا وإلى كل الجماعة وأروهم ثمر الأرض وأخبروه وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقا إنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جدا وأيضا قد رأينا بني عناق هناك " [١]

(٢) وجاء في سفر صموئيل الأول . الإصحاح الخامس والعشرون :

"فأجاب نابال عبيد داود وقال : من هو داود ومن هو ابن يسي قد كثر اليوم العبيد الذين يقحصون كل واحد من أمام سيده آآخذ خبزي ومائي وذبيحي الذي ذبحت لجاري وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم فتحول غلمان داود إلى طريقهم ورجعوا وجاءوا وأخبروه حسب كل هذا الكلام فقال داود لرجاله : ليتقلد كل واحد منك سيفه وتقلد داود سيفه وصعد وراء داود نحو أربعمائة رجل ومكث مائتان مع الأمتعة "[٢]

(٣) وفي سفر الملوك الثاني . الإصحاح الثالث : وكان ميشع ملك موآب الثاني صاحب مواش ، فأدى لملك إسرائيل مئة ألف خروف ومئة ألف كبش بصوفها وعند موت آخاب عصى ملك موآب على ملك إسرائيل وخرج الملك يهورام في ذلك اليوم من السامرة وعد كل إسرائيل وذهب وأرسل إلى يهو شافاط ملك يهوذا يقول : قد عصى علي ملك موآب ، فهل تذهب معي إلى موآب للحرب ؟"[٣]

(٤) جاء في حزقيال .(إصحاح ٢١ عدد ٥)، ويوشع (إصحاح ٢٣ عدد٤) " الرب آلهكم هو المحارب عنكم انظروا : قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكا حسب أسباطكم من الأردن وجميع الشعوب التي قرضتها والبحر العظيم نحو غروب الشمس والرب آلهكم هو ينفيهم من أمامكم ويطردهم من قدامكم فتملكون أرضهم كما كلمكم الرب آلهكم " [٤]

---

(١) [سفر العدد . الإصحاح الثالث عشر]

(٢) سفر صموئيل الأول . الإصحاح الخامس والعشرون

(٣)سفر الملوك الثاني . الإصحاح الثالث

(٤) سفر حزقيال الإصحاح الواحد والعشرون

(٥) وفي سفر القضاء إصحاح أول عدد ٨ ، ٩ " وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوا بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل وسكان الجنوب والسهل "

(٦) وفي سفر القضاء الإصحاح الثامن عشر " فأما هم فقد أخذوا ما صنع ميخا والكاهن الذي له وجآءوا إلى لايش إلى شعب مستريح مطمئن فضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار ولم يكن من ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون ولم يكن لهم أمر مع إنسان وهي في الوادي الذي لبيت رحوب فبنوا المدينة وسكنوا بها ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذي ولد لإسرائيل ولكن اسم المدينة أولا : لايش " [١]

(٧) وفي صموئيل الأول " وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينين للحرب ونزلوا عند حجر المعونة ، وأما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل واشتبكت الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين وضربوا من الصف في الحقل نحو أربعة آلاف رجل " [٢]

(٨) وفي التكوين إصحاح ٣٤ : " فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين أن ابني يعقوب شمعون ولاوي أخوي دينة أخذا كل واحد منهما سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف لأنهم بخسوا أختهم ، غنمهم وبقرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه "

(٩) وفي سفر التكوين إصحاح ١٤ : " فلما سمع إبرام أن أخاه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مائة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان وانقسم عليهم ليلا هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى حوبة التي عن شمال دمشق واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطا أخاه أيضا وأملاكه والنساء أيضا والشعب "

(١٠) وفي سفر العدد إصحاح ٢١ أعداد ٢١ : ٣٥ " فقال الرب لموسى لا تخف منه لأني قد دفعته إلى يدك مع جميع قومه وأرضه فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين الساكن في حبشون فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق لهم شارد وملكوا أرضه "

(١١) وفي سفر العدد إصحاح ٢٥ : " ثم كلم الرب موسى قائلا ضايقوا المديانيين واضربوهم لأنهم ضايقوكم بمكايدهم التي كادوكم بها "

---

(١) سفر القضاء الإصحاح الثامن عشر

(٢) سفر صموئيل الأول الإصحاح الرابع

(١٢) وتطالعنا التوراة ، أن الله قد أمر موسى عليه السلام أن يشن حربا على أقوام قد عبدوا غير الله سبحانه وتعالى " وكلم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلا : كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفاعاتهم"[١]

(١٣) وشبيه به ما ورد في سفر صموئيل إصحاح ١٧ " فقال داود للفلسطيني أنت تأتي إلي بسيف وبرمح وبترس ، وأنا آتي إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيرتهم ..... فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل "

(١٤) وفي سفر صموئيل الأول إصحاح ٢٣ : " فذهب داود ورجاله إلى قعيلة وحارب الفلسطينين وساق مواشيهم وضربهم ضربة عظيمة وخلص داود سكان قعيلة "

(١٥) في سفر المزامير المزمور ١٨ يسبح داود الرب ويمجده لأنه يعطيه القوة على محاربة أعدائه : " الذي يعلم يدي القتال فتحنى بذراعي قوس من نحاس "

(١٦) هذه بعض من حروب بني إسرائيل التي سجلتها نصوص كتبهم وأسفارهم ، فمفهوم الحرب والقتال ، ليس مفهوما كريها من وجهة النظر التوراتية ، وكأنها حروب مستمدة من الشريعة الدينية التوراتية ، وهي كانت دائما تتم بمباركة الرب ومعونته وكأن الرب . حسب تعبير التوراة قد استل سيفه من غمده فلا يرجع[٢]

---

(١) سفر العدد الإصحاح الثالث والثلاثون

(٢) حزقيال إصحاح ٢١

الحرب في العهد الجديد:

وكذلك نرى الإنجيل لم يهمل الكلام عن الحروب بالكلية ، بل جاء نص واضح صريح ، لا يحتمل التأويل ولا التحريف يقرر أن المسيحية على الرغم من وداعتها وسماحتها التي تمثلت في النص الشهير " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر" . ألا أنها تشير إلى أن السيد المسيح عليه السلام قد يحمل السيف ويخوض غمار القتال إذا دعته الظروف لذلك ؛ فجاء في الأنجيل على لسان السيد المسيح :

" لا تظنوا أني جئت لأرسي سلاما على الأرض ، ما جئت لأرسي سلاما ، بل سيفا ، فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه والبنت مع أمها والكنة مع حماتها وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته "[1]

ولعلنا نلاحظ التشابه الكبير بين هذه المقولة وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده " رواه أحمد وأبو داود .

مما سبق يتبين لنا واضحا وجليا أن الحرب والقتال سنة كونية سرت في الأمم جميعا ، ولم نر في تاريخ الأمم أمة خلت من حروب وقتال ورأينا من استعراض الكتب المقدسة . التوراة والإنجيل . انه سنة شرعية لم تخل شريعة من الشرائع السماوية السابقة على الإسلام من تقريره والقيام به كما مر .

لقد كان هذا القدر كافيا في إثبات أن محمدا صلى الله عليه وسلم سائر على سنن من سبقه من الأنبياء ، وأن الجهاد لتقرير الحق والعدل مما يمدح به الإسلام لا مما به يشان ، وأن ما هو جواب لهم في تبرير هذه الحروب وسفك الدماء كان جوابا لنا في مشروعية ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم من القتال والجهاد . ولنشرع الآن في تتميم بقية جوانب البحث مما يزيل الشبهة ويقيم الحجة ويقطع الطريق على هؤلاء المشككين ، فنتكلم عن غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ،ممهدين لذلك بالحالة التي كانت عليها الجزيرة العربية من حروب وقتال وسفك للدماء لأتفه الأسباب وأقلها شأنا ، حتى يبدو للناظر أن القتال كان غريزة متأصلة في نفوس هؤلاء لا تحتاج إلى قوة إقناع أو استنفار .

---

(١) إنجيل متى الإصحاح العاشر آية ٣٤ : ٣٦

الحرب عند العرب قبل الإسلام :

سجلت كتب التاريخ والأدب العربي ما اشتهر وعرف بأيام العرب ، وهي عبارة عن مجموعة من الملاحم القتالية التي نشبت بين العرب قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس يعنينا سرد هذه الملاحم وتفاصيلها ولكن الذي يعنينا هنا ان نقف على بعض الجوانب التي تصلح للمقارنة (الأسباب . الزمن المستغرق . الاثار التي خلفتها هذه الحروب)

قال العلامة محمد امين البغدادي : " اعلم أن الحروب الواقعة بين العرب في الجاهلية أكثر من أن تحصر ومنه عدة وقائع مشهورة لايتسع هذا الموضع لذكرها ولنذكر بعضا منها على سبيل الإجمال " (١)

وقد ذكرت كتب التواريخ أياما للعرب غير ذلك (البسوس . وداحس والغبراء . يوم النسار . يوم الجفار . يوم الفجار . يوم ذي قار . يوم شعب جبلة . يوم رحرحان ..... إلخ) والمتأمل في هذه الملاحم والأيام يرى أن الحماسة الشديدة والعصبية العمياء وعدم الاكتراث بعواقب الأمور والشجاعة المتهورة التي لا تتسم بالعقل كانت هي الوقود المحرك لهذه الحروب هذا فضلا عن تفاهة الأسباب التي قامت من اجلها هذه المجازر ، والمدة الزمانية الطويلة التي استمرت في بعضها عشرات السنين والاثار الرهيبة التي خلفتها هذه الحروب ، وعلى الرغم من أننا لم نقف على إحصاء دقيق لما خلفته هذه الحروب إلا أن الكلمات التي قيلت في وصف آثارها من الفناء والخراب وتيتم الأطفال وترمل النساء .... إلخ لتوقفنا على مدى ما أحدثته الحرب في نفوس الناس من اليأس والشؤم ، ويصف لنا الشاعر زهير بن أبي سلمى طرفا من ذلك في معلقته المشهورة وهو يخاطب الساعين للسلام بين عبس وذبيان :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

فهو يقول للساعين للسلام : أنكما بتحملكما ديات الحرب من مالكما ، أنقذتما عبسا وذبيان بعدما يأسوا ، ودقوا بينهما عطر منشم ، ومنشم هو اسم لامرأة كانت تبيع العطر يضرب بها المثل في التشآؤم ، دليل على عظم اليأس الذي أصاب نفوس الناس من انتهاء هذه الحرب . (٢)

---

(١) سبائك الذهب ٤٤٣

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٨٣ ط مصطفى الحلبي

هذه إطلالة سريعة ومختصرة على الحروب وأسبابها لدى العرب قبل الإسلام والآن نشرع في الكلام على تشريع الجهاد في الإسلام ثم نتبع ذلك بتحليل موثق لغزوات النبي صلى الله عليه وسلم .

الجهاد في شرعة الإسلام :

لما استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأسس حكومته النبوية بها ، بعد ثلاثة عشر عاما من الدعوة إلى الله وتحمل الأذى والعذاب في سبيل ذلك تخللتها ثلاث هجرات جماعية كبيرة . هاجت ثائرة قريش وحقدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أحرزه من استقرار ونجاح لهذه الدولة الوليدة . دون ظلم أو استبداد أو سفك للدماء . ولذلك فقد كان صلى الله عليه وسلم مقصودا بالقتل ، إذ ليس معقولا أن تنام أعينهم على هذا التقدم والنمو ، ومصالحهم قائمة على الزعامة الدينية في جزيرة العرب ، وهذه الدولة الجديدة قائمة على أساس ديني ربما يكون سببا في زوال هذه الزعامة الدينية الوثنية الموروثة . وإذا كان الإسلام دينا بلغت الميول السلمية فيه مداها في قوله تعالى " فاصفح عنهم وقل سلام " إلا إن الميول السلمية لا تتسع لمنع القائمين بهذا الدين الجديد من الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الذي أنزله الله للإنسانية كآفة ، في عالم يضيع فيه الحق والعدل إن لم يكن لهما قوة تحميهما ، فكان لامناص من من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذي يشهره خصومهم في وجوههم ، ولذلك كان التعبير بقوله تعالى

" أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز "

أقول كان التعبير بالإذن الذي يدل على المنع قبل نزول الاية يدل على طروء القتال في الإسلام وأنه ظل ممنوعا طيلة العهد المكي وبعضا من العهد المدني .

(هذا ولم يغفل الإسلام حتى في هذا الموطن . موطن الدفاع عن النفس والدين . أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان ؛ لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور ، وهذا من مميزات الحكومة النبوية فإن القائم عليها من نبي يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله ، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله ، والعالم كله في نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليما قويا .... إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ليس فيما بين الناس فحسب ، ولكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وبين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من

نفسه ولا أظن أن قارئا من قرائنا يجهل الناموس الذي اكتشفه دارون وروسل ولاس ودعواه ناموس تنازع البقاء وبنوا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسان أيضا) [١]

" ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصراني للمسيح وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام حتى إنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم ، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون في الأرض لا تجمعهم جامعة ، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الأمبراطور قسطنطين الذي أعمل السيف في الوثنيين من أعدائهم ..... أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية في عالم مبني على سنن التدافع والتمنازع واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ودك صروح العدل "

" يقول المعترضون : وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب وحسم منازعاتها عن طريق التحكيم ، وهذا قرآنكم يدعوكم إلى الجهاد وحثكم على الاستبسال فيه ؟

نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم " الأنفال ٦١.

"هذه حكمة بالغة من القرآن ، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة ، وهي أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها ن ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التي لابد منها ما دام الإنسان في عقليته ونفسيته المأثورتين عنه ، غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمي يتفق فيه على إبطال الحرب فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهله من ناحية ، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى ، ولو كان يريدها لذاتها لما نوه لهذا الحكم " [٢]

ثانيا: نظرة تحليلية لغزوات النبي صلى الله عليه وسلم :

إذا تتبعنا هذه الغزوات وقسمناها حسب الطوائف التي ضمتها ، أمكننا التعرف على القبائل التي حدثت معها هذه المعارك وهي كالآتي : (يوجد مع البحث مرفق بأسماء وأنساب القبائل التي حاربها أو حاربت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوضح صحة انتساب هذه القبائل جميعا إلى مضر جد النبي صلى الله عليه وسلم)

---

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة لمحمد فريد وجدي ص ١٦٣،١٦٤ بتصرف

(٢) السيرة النبوية لمحمد فريد وجدي ١٦٥ ، ١٦٦

ونستطيع من خلال هذا التتبع أن نقول أن هذه القبائل كانت كلها تنتسب إلى مضر وهو جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى حد تعبير العلامة **المنصورفوري** في كتابه " **رحمة للعالمين**" كانت نتيجة غضب إخوته من أجداده ، أما اليهود فقد كانوا مع قريش حسب معاهدتهم معهم ، وبذلك ظهر جليا أن الغزوات والسرايا التي خاضها أو أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت موجهة في نطاق ضيق هو نسل مضر ، فلا يمكن أن يقال حينئذ : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشعل نار الحرب ضد العرب جميعا أو أنه خاض الحروب لإكراه الناس على اعتناق الإسلام ، ولو كان الأمر كما يقولون لوقعت حرب عدوانية أو دفاعية ضد أي قبيلة من مئات القبائل العربية ، وهذه الحقيقة تحتاج إلى مزيد من التعمق والتحليل في بعض خصائص القبائل العربية ؛ إذ قد يقول قائل أو يعترض معترض : إن هذا الذي توصلنا إليه بالبحث . ألا وهو انحصار القتال مع المضريين . لم يحدث إلا اتفاقا ، . صدفة . والأمور الاتفاقية لاتدل على شئ ولا يستخرج منها قانون كلي نحكم به على جهاد النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ كان من الممكن أن يقاتل النبي صلى الله عليه وسلم ربيعة بدلا من مضر ، أو يقاتل ربيعة ومضر معا ، أو يقاتل القحطانية بدلا من العدنانية أو يقاتلهما معا،وهكذا

ذلك أن المتوقع أن تزيد الألفة والمودة بين أفراد وقبائل الجد الواحد لا أن تشتعل نار الحرب والقتال بينهم فما الذي عكس هذا التوقع وقلب الأمر رأسا على عقب ؟!

وللإجابة على هذه الشبهة نقول :

كان من أشهر الأمثلة العربية المثل المشهور " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " وقد كان العرب يطبقون هذا المثل تطبيقا حرفيا . دون هذا التعديل الذي أضافه الإسلام عليه . فكانوا ينصرون إخوانهم وبني أعمامهم نصرا حقيقيا على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم ، وإذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من افراد القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل والأمر واحد في الحالين .

بينما هم كذلك في بني أبيهم وفي حلفائهم ، إذ بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضا في الشرف والثروة ، فتجد القبائل التي يجمعها أب واحد كل واحدة قد وقفت لإختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منها الدرجة التي لا تطاق ، كما كان بين بطني الأوس والخزرج ، وبين عبس وذبيان ، وبين بكر وتغلب ابني وائل ، وبين عبد شمس وهاشم ، ..... إلخ فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة ، تزيدها العصبية حياة ونموا ، وكانت مفقودة تماما بين القبائل المختلفة ؛ فكانت قواهم متفانية في قتالهم وحروبهم ونزاعاتهم .

وقد علل الشيخ **محمد الخضري** بك هذه الحقيقة العجيبة بأمرين :

الأمر الأول : التنافس في مادة الحياة بين بني الأب الواحد إذ أن حياتهم كانت قائمة على المراعي التي يسيمون فيها أنعامهم ، والمناهل التي منها يشربون .

الأمر الثاني : تنازع الشرف والرياسة ، وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الأخوة وله ولد صالح لأن يكون موضع أبيه ، فينازع أعمامه رياسة العشيرة ولا يسلم احد منهما للآخر ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمرا في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء وقد يبقيا متجاورين وفي هذه الحالة يكون التنافر أشد كما كان الحال بين الأوس والخزرج من المدينة ، وبين هاشم وأمية من مكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة . ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لا يحتاج شبوب نار الحرب بينهما إلى أسباب قوية بل إن أيسر النزاع كاف لنشوب نار الحرب وتيتم الأطفال وتأيم النساء ؛ لذلك كانت الجزيرة العربية دائمة الحروب والمنازعات.[١]

هذه الحقيقة التي توصلنا إليها . وهي أن نار الحرب سريعة النشوب بين أبناء الأب أو الجد الواحد . تدعم ما توصلنا إليه من أن الحرب إنما كانت نتيجة غضب إخوته من أجداده ، وإذا كان الخلاف محصورا في السببين السابقين ، فأي سبب هو الذي أجج نار الغيرة والحقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل السبب هو التنافس في مادة الحياة الدنيا ، أم الخوف من انتزاع الشرف والسيادة التي تؤول إلى النبي صلى الله عليه وسلم إذ هم أذعنوا له بالرسالة والنبوة ؟

أما عن السبب الأول فليس واردا على الإطلاق ، فلقد ضرب كفار مكة حصارا تجويعيا على رسول الله وعلى بني هاشم وبني عبد المطلب ، فانحازوا إلى شعب أبي طالب ثلاث سنوات كاملة ، عاشوا فيها الجوع والحرمان ما لا يخطر ببال ، حتى إنهم من شدة الجوع قد أكلوا ورق الشجر وكان يسمع من بعيد بكاء أطفالهم وأنين شيوخهم ، ومع ذلك فقد التزم النبي صلى الله عليه وسلم الصبر والثبات ، ولم يأمر أصحابه أن يشنوا حربا أو قتالا لفك هذا الحصار ، والخبير يعلم ما الذي يمكن أن يفعله الجوع بالنفس البشرية ، إن لم يصحبها نور من وحي أو ثبات من إيمان .

---

(١) تاريخ الدولة الأموية الشيخ محمد الخضري بك ٣٢ ، ٣٣ ط دار القلم بيروت .

كان السبب الثاني إذن كفيلا بإشعال هذه النار في قلوب هؤلاء وعلى حد تعبير الأستاذ العلامة محمد فريد وجدي " كان . النبي . مقصودا بالقتل من قريش ، وليس يعقل أن تغمض قريش عينها ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين في البلاد العربية ، وعن قيام زعامة أخرى في البلاد كيثرب يصبح منافسا لأم القرى ، وربما بزها سلطانا على العقول ، وكر على قريش فأباد خضراءها وسلبها حقها الموروث " [١] ، والذي يؤيد هذا ويقويه ذلك الحوار الذي دار بين الأخنس بن شريق وبين أبي جهل ؛ إذ قال له الأخنس : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ . يعني القرآن . فقال ما سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذا ؟! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .

ليست الصدفة إذن ولا محض الاتفاق هما اللذان دفعا النبي صلى الله عليه وسلم لقتال ، أبناء أجداده من مضر دون ربيعة أو غيرهما من العرب ، بل الطبيعة العربية المتوثبة دائما ، لمن ينازعها الشرف والسيادة من أبناء الأب الواحد . على ما بيناه آنفا . كانت هي السبب الرئيسي لاشتعال هذه الحروب ولولاها لما اضطر صلى الله عليه وسلم للقتال بعد ثلاثة عشر عاما من الدعوة والصبر تخللها من المشاق والعنت ما الله به عليم .

وثمة أمر آخر ينبغي الإشارة إليه ، يتعلق بالآثار الناجمة عن هذا القتال ، من حيث أعداد القتلى التي نجمت عن هذه الغزوات والجدول الآتي يعطينا صورة بيانية عن هذه الآثار كالآتي [٢] :

---

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة الأستاذ محمد فريد وجدي ١٦٢ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) اعتمدنا الجدول الذي ذكره الأستاذ أحمد شلبي في كتابه الإسلام والقتال ص ١٢ ط الهيئة العامة للكتاب .

الغزوة	شهداء المسلمين	قتلى المشركين	الملاحظة
بدر	١٤	٧٠	
أحد	٧٠	٢٢	
الخندق	٦	٣	
بنو المصطلق		٣	
خيبر	١٩	.	لم يدخل اليهود في هذه الإحصائية لأن لهم حكما آخر بسبب خيانتهم ، فهم قتلوا بناء على حكم قضائي ، لا بسبب الحرب .
مؤته	١٤	١٤	
حنين	٤		
الطائف	١٢		
تبوك			
المجموع	١٣٩	١١٢	٢٥١ من الجانبين

وبعد فقد بدا للناظرين واضحا وجليا أن الإسلام متمثلا في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد ما يكون عن حمل الناس على اعتناق الإسلام بالسيف ، وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم لأعدائه بعدما قدر عليهم : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " هكذا دون شرط أو قيد ، أقول حتى دون اشتراط الإسلام .

<u>والنتائج الحقيقية :</u>

(١) تحويل العرب الوحوش إلى عرب متحضرين ، والعرب الملحدين الوثنيين إلى عرب مسلمين موحدين .

(٢) القضاء على أحداث السلب والنهب وتعزيز الأمن العام في بلاد تفوق مساحتها مساحة فرنسا بضعفين

(٣) إحلال الأخوة والروحانية محل العداوة والبغضاء .

(٤) إثبات الشورى مكان الاستبداد . [١].

هذا وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ضوابط وقيود كان من شأنها أن تحدد وظيفة الجهاد في نشر الإسلام في ربوع المعمورة ، دون سفك للدماء ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

ومن هذه الضوابط قوله تعالى :"وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين"[٢]

فإن كان بين المسلمين والكفار عهد أو أمان فلا يجوز للمسلمين الغدر حتى ينقضي الأمد ، فإن خاف المسلمون من أعدائهم خيانة بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم والخيانة ، فحينئذ يخبرهم المسلمون أنه لا عهد بيننا وبينكم حتى يستوي علم المسلمين وعلم أعدائهم بذلك.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة من الأعداء لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم ، لأنه لم يخف منهم بل علم ذلك.

ودل مفهوم الآية أيضا أنه إذا لم يخف منهم خيانة بأن يوجد منهم ما يدل على ذلك ، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم ، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته [٣].

انتشار الإسلام:

أ . معدلات انتشار الإسلام :

الذي يؤكد على الحقيقة التي توصلنا إليها . وهي أن انتشار الإسلام كان بالدعوة لا بالسيف . أن انتشار الإسلام في الجزيرة العربية وخارجها ، كان وفق معدلات متناسبة تماما من الناحيتين الكمية والكيفية ، مع التطور الطبيعي لحركة الدعوة الإسلامية ، ولا يوجد في هذه المعدلات نسب غير طبيعية أو طفرات تدل على عكس هذه الحقيقة حيث :

" يجب أن نربط بشكل متكامل بين بدايات الأصالة في العلوم والتكنولوجيا الطبيعية الإسلامية خاصة ، وبين نسبة المسلمين وحديثي الإسلام إلى نسبة رجال العلم والمعرفة من المسلمين

---

[1]) رحمة للعالمين ٤٦٩(

[2]) الأنفال الآية ٥٨(

[3]) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٢١(

وحديثي الإسلام بالازدياد الكمي والكيفي في عدد ومعدل المسلمين بين سكان البلاد المسلمة آنذاك ويجب أن نلاحظ حقيقة أن نمو العلوم الإنسانية / الاجتماعية الإسلامية الحديثة أو نمو الثقافة الإيدولوجية الإسلامية عامة قد حدث في مستهل القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، مما حقق زخما في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي فعلى سبيل المثال ، أحدث هذا إنشاء مدارس للفكر القانوني والفلسفي الإسلامي ويجب أن نتعرف على الفترات الزمنية الفاصلة وتسلسلها بين مستهل فترة الإبداع والإنتاج في الثقافة التكنولوجية الإسلامية منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي وما بعده كنتيجة للثقافة الإيدولوجية الإسلامية وتعتمد منحنيات الدخول في الإسلام في بلاد فارس والعراق وسوريا ومصر والأندلس على بعض المعلومات والتقييمات لـ بوليت وأي استقراء تقريبي للجدول الآتي يبين عدد السنوات التي استغرقها حتى أصبح عدد المسلمين ٥% خمسة بالمائة من مجموع السكان أو أقل ثم ٢٥% ثم ٥٠ % ثم ٧٥% من مجمع السكان الكلي ، ويتماشى نمو المسلمين الكمي في عدد السكان مع النمو الكيفي للثقافتين الإيدولوجية والتكنولوجية الإسلاميتين ، وأصبح حديثو الإسلام الذين تثقفوا تماما بالثقافة الإيدولوجية الإسلامية قادة في الثقافتين الإسلاميتين اللتين كانتا توحيديتين أو متكاملتين تماما على الرغم من متطلبات التخصص والاختلاف المتنامي بين المهن ، وهذا الجدول يوضح نسبة الدخول في الإسلام من القرن الأول الهجري وحتى الرابع الهجري / السابع وحتى العاشر الميلادي :

السنوات بالهجري	فارس (إيران)	العراق	سورية	مصر	الأندلس
نسبة المسلمين مع نهاية أول مائة عام	٥%	٣%	٢%	٢%	أقل من ١%
السنوات التي صارت النسبة فيها ٢٥%من السكان	١٨٥	٢٢٥	٢٧٥	٢٧٥	٢٩٥
السنوات التي صارت النسبة فيها ٥٠%من السكان	٢٣٥	٢٨٠	٣٣٠	٣٣٠	٣٥٥
السنوات التي صارت النسبة فيها ٧٥%من السكان	٢٨٠	٣٢٠	٣٨٥	٣٨٥	٤٠٠

* حسبت السنوات منذ عام ١٣ قبل الهجرة عندما بدأ تنزيل القرآن الكريم .

وتوضح معلومات أخرى أن شعب شبه الجزيرة العربية كان الشعب الأول في الدخول في الإسلام ، وقد أصبح معظمهم مسلمين في العقود الأولى بعد تنزيل القرآن الكريم ، وهكذا كان عدد العرب المسلمين يفوق عدد المسلمين من غير العرب في البداية ، ومهدوا الطريق للتثاقف الإسلامي والتعريب من أجل المسلمين غير العرب ، ولم يمض وقت على هؤلاء في أصولهم من أديان ومذاهب متعددة من كل الأمم والحضارات السابقة ، كان على هؤلاء جميعا أن يوظفوا بشكل موحد عمليات توأمية للتقليد والابتكار في وقت واحد وذلك حسب خلفياتهم الأصلية تحت التأثير الثوري والمتحول الأكثر عمقا للفكر الإسلامي ومؤسساته ، وقاموا عن طريق عملية التنسيق المزدوجة بتنقية تراثهم من علوم وتكنولوجيا وفلسفات عصر ما قبل القرآن الكريم وذلم إما بالقبول الجزئي أو الرفض الجزئي وقاموا كذلك بالابتكار من خلال انطلاقهم من أنظمتهم الفكرية الحسية وتراثهم في ضوء القرآن الكريم والسنة ومن هنا ولدت العلوم الإسلامية والتكنولوجيا الإسلامية والحضارة الإسلامية الحديثة متناسبة مع الإيدولوجية والرؤية الإسلامية الشاملة"(١)

---

(١) (الفكر الإسلامي في تطوير مصادر المياه والطاقة د / سيد وقار أحمد حسيني ـ عالم زائر في جامعة ستانفورد ٧١ : ٧٥ ترجمة د / سمية زكريا زيتوني طبعة : فصلت للدراسات والترجمة والنشر

Richard W. bulliet, Conversion of Islam and Emergence of a Muslim Society in Iran in Conversion to Islam, ed - Nehemia Levtzion (New York Holmes & Meier publ ., Inc,1979) Pp. 30 - 51, p31 for fig 1.1.).

خصائص ذلك الانتشار :

- عدم إبادة الشعوب

. جعلوا العبيد حكاما .

. لم يفتحوا محاكم تفتيش .

. ظل اليهود والنصارى والهندوك في بلادهم .

. تزاوجوا من أهل تلك البلاد وبنوا أسرا وعائلات على مر التاريخ .

. ظل إقليم الحجاز . مصدر الدعوة الإسلامية . فقيرا إلى عصر البترول في الوقت الذي كانت الدول الاستعمارية تجلب خيرات البلاد المستعمرة إلى مراكزها .

. تعرضت بلاد المسلمين لشتى أنواع الاعتدآت (الحروب الصليبية . الاستعباد في غرب إفريقيا . إخراج المسلمين من ديارهم في الأندلس وتعذيب من بقي منهم في محاكم التفتيش)

ونخلص من هذا كله أن تاريخ المسلمين نظيف وأنهم يطالبون خصومهم بالإنصاف والاعتذار، وأنهم لم يفعلوا شيئا يستوجب ذلك الاعتذار حتى التاريخ المعاصر .